الألغاز والأحاجي وغريب اللغة في مقامات الحريريّ

د. صـلاح سعد إمحمد المليطيّ ـ كلية التربية بجنزور ، جامعة طرابلس

توطـــئة :

المقامات من أهــم ما لفت الباحثين والدّارسين للغة والأدب وسبب ذلك ما احتوته من غريب اللغة ونفائسها وهذا يعود بالفائدة العظيمة من بحثها ودراستها ، وقد بـــــرز الاهتمام بهذا الفن من مطلع القرن السادس الهجري لينطلق العلماء ينشرونه لفائدته ، حيث إن الهدف من المقامات هدف تعليميٌ ، الأمر الذي حذا بالعلماء والباحثين في اللغة والأدب أن ينكبّوا على شـــــرح القامات ودراستها وإبراز ما فيها من غريب اللغة والنكت والأحاجي .

وقد ألمح الدكتور شوقـــي ضيف إلى أن المقامات " أريد بها التعليم منذ أوّل الأمر ، ولعله من أجل ذلك سمّاها بديع الزمان الهمذاني ، مقامة ، ولم يسمّها قصة ولا حكاية ، فهي ليست أكثر من حديث قصير ، وكلّ ما في الأمر أنَّ بديع الزمان حاول أنْ يجعله مشوّقاً فأجراه في شكل قصصيّ ، وعُمّيَ على كثير من الباحثين في عصرنا فظنُّوها ضرباً من القصص وقارنوا بينها وبين القصة الحديثة ، ووجدوا فيها نقصاً كثيراً ، وهذا حَمْلٌ لعمل بديع الزمان على معنى لم يقصد إليه " [أ].

هذه الدراســـــــة (الألغاز والأحاجي وغيب اللغة في مقامات الحريريّ) تهدف إلى تقصّي منهج الحريريّ في تأليفه المقامات في سبر ظاهرة الغريب اللغوي ، وطريقه في رسم المنهاج التعليمي لشـــرح هذه الجوانب اللغوية التي شحنها مؤلفه ، وإبراز طرائقه في لفت الدارس إلى هذه الظاهرة عن طريق الأحاجي والألغاز والنكت التي سَيَّـــج بها ظاهرة الغريب اللغوي .

ولاشك أنَّ أهمية هذه الدراســـة تكمن في أهمية هذا الكتاب – مقامات الحريري – الذي احتوى مسائل غريب اللغة شرحاً وتحليلاً ، وتوضيحاً ؛ ليمثل منهجاً تعليمياً يؤسس عليه طرائق البحث العلمي في اللغة والأدب العربيين ، ومما زاد أهمية هذه الدراسة سعة انتشار هذه المقامات الحريرية وكثرة شرَّاحها ، ولهذا اختار الباحث أنْ يلفت إلى هذه الجوانب التي أشار إليها المؤلف من غريب اللغة وكيف أدار جوانبها ، وقد ســـرت في هذه الدراسة وفق المنهج الوصفي التحليلي حيث رأيت مناسبة ذلك لتحقيق الهدف من وراء هذه الدراسة وأنه يحيط بجوانب البحث جميعها .

أولى الحريريّ اهتماماً كبيراً بغريب ألفاظ اللغة في مقاماته التي اتخذ في تأليفها منهجاً تعليمياً يفسر من خلاله الإعراب في اللغة بأسلوب يشدّ به عقول الدارسين ، ومن هنا يجب وضع هذا الموضوع على بساط البحث ، تفسير معنى الغريب لغةً واصطلاحاً ودور المقامات الحريرية في تناول هذه الظاهرة وتوجيه الدارسين إلى معرفة أسرارها وحلّ مشكلها .

اللغة العربية الفصحى التي ينطقها العربي الفصيح الصحيح لا يمكن أنّ يقع فيها لفظ غريب ، حيث نطقها العربي بفطرته وسليقته ، وهي لغة أشعارهم ، ولهذا كانت لغة القرآن ، الذي نزل بلفظهم الواضح الهادف لهدايتهم بلغتهم الواضحة المفهومة لديهم .

وإذا نظرنا إلى المجتمع العربي وجدنا مجتمعاً قبلياً ، وكلّ قبيلة تمثل بيئة مستقلة ، وخاصة اللغة التي تنطقها هذه القبيلة بطريقة مستقلة ، خلافاً لغيرها من القبائل ، ولهذا نجد ظاهراً ما يّميز هذه القبيلة من الأخــرى في ألفاظها ، وأصوات مفرداتها ، ويلحظ هذا في نزول القرآن بلغات قبائل العرب تيسراً على عباده ، عندما أمر رسوله – صلى الله عليه وسلم - بأن يقرئ كلَّ قوم بلغتهم وما استقرت عليه عادتهم [1] .

وهذا الأمر الذي جرت عليه عادة العربي في لغة قومه متمكن في لفظه لا يستطيع تركه ؛ لأنه يشق عليه ويشتد إلاّ بعد مران كثير ، وتطويع لسانه لهذا الأمر " ولو أنَّ كل فريق من هؤلاء أُمر أنْ يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً ، لاشتدَّ ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه ، ولم يمكنه إلاّ بعد رياضةٍ للنفس طويلة ، وتذليل للسان ، وقطعٍ للعادة ، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات ، ومتصرفاً في الحركات ، كتيسيره عليهم في الدّين » [2].

مما يُلحظ في هذا المقام كثرة هذه القبائل العربية وتشعّبها في الجزيرة العربية ؛ أدّى إلى تعدد لغاتها ، الأمر الذي أدى إلى ظهور الغريب ، فهذه قبيلة قريش لا تعرف بعض ألفاظ قبيلة هذيل ، وقد كان هذا الاختلاف في معاني هذه الألفاظ عند قبائل العرب مدعاةً لأنْ يشفق النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمته لنزول القرآن على حرف واحد ، فسأل الله معافاته ومغفرته « أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - **كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، قَالَ: "أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ " ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقَالَ: "أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ مَغْفِرَتَهُ، إِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ " ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثلاثة أَحْرُفٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : "أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، فَإِنَّ أُمَّتِي لَا**

تُطِيقُ ذَلِكَ " ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهُ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا" [3]، ومن هذا نلحظ أنَّ سبب ورود القرآن على سبعة أحرف التخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر والتهوين عليها [4] ، " وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة ، وألسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغةٍ إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك إلا بالتعليم والعلاج ، ولاسيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتاباً ... فكان من تيسير الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يقرئ كل أمّـــة بلغتهم وما جرت عليه عادتهم ، فالهذلي يقرأ (عتى حين) يريد (حتـــى) هكذا لفظ بها ويستعملها ، والأسدي يقرأ : (تعصمون) و(تِعلم) و(يِسودّ وجوه) و (**ألم إعهد إليكم**) والتميمي يهمز ، والقرشي لا يهمز ، والآخر يقرأ : (قيل لهم) ، (غيص الماء) بإشهام الضم مع الكسر ، و(بضاعتنا ردّت إلينا) بإشهام الكسر مع الضم ... » [5] .

هذا الأمر حذا بالعلماء يولون اهتماماً كبيراً بجمع لغة العرب من ألسنتها شفاهةً ، فاتجهوا إلى الصحراء يدوّنون ما يسمع من فصحائهم فأخذوا يدونون شواردها ومعانيها خدمة للقرآن العظيم الذي نزل بلغة العرب ، الأمر الذي يؤسس عليه تفسير القرآن وشـــرح أحكامه واستنباط قواعده ، قال الرسول نبيه - صلى الله عليه وسلم - « **أعربوا القـــرآن والتمسوا غرائبه** » [6]، ولأهمية هذه المعرفة بألفاظ العربية ، وما يظهر فيها من غريب أولى الصحابة عليهم الرضوان اهتماماً كبيراً بفهم ما ورد في القرآن من ألفاظ ومعرفة غريبها وفهمه ، قرأ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قوله - تعالى - : [**وفَاكِهَةً وأَباً**][7] فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما (الأبَّ) ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إنه كَلَفٌ عليك يا عمر »[8] ، سأل عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - عن معنى (التخوّف) في قوله - تعالى - : [**أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ**][9] فلم يجيبوا ، فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا يا أمير المؤمنين ، التخوَّف ، التّنقص ، قال عمر : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال الشيخ : نعم ، قال شاعرنا :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْها تَامِكاً قَرِداً كَمَا تَخَوَّف عودُ النَّبْعةِ السَّفُنُ [10]

وبناء على هذا فإن العرب كانوا يحتجون بلغتهم التي سمعوها وأنهم لا يعرفون كل الكلام ، وهذا سببه اختلاف اللهجات وتنوعها .

قال زيد الخيل :

قد علمتْ سلامـــةُ أَنَّ سيفي كريةٌ كُلَّما دُعِيت نَزَالِ
أُحادثهُ بِصَقْلٍ كُلَّ يومٍ وأَعْجُمُهُ بِهَاماتِ الرِّجَال [11]

أحادثه : أشحذه ، أعجمه : أعضه برؤوس الرجال [12] .

وقد اهتم اللغويون والفقهاء بتفسير ما ورد من غريب في القرآن وفهم معناه بما هو مسموع من كلام العرب شعراً ونثراً ، فهذا نافع بن الأزرق يسأل ابن عباس تفسير معاني ألفاظ من القرآن ، فيأتي ابن عباس بمعناها مع ذكر شاهدٍ لها من أشعار حتى وصلت هذه الألفاظ إلى قرابة مائة لفظ تقريباً ، ومن أمثلة ذلك أن : " سأل نافعٌ ابن عباس عن معنى قوله - تعالى - : [**عَنِ اليَمِينِ وعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ**][13] قال ابن عباس : العِزون ، حَلَقُ الرّفاق ، قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال ابن عباس : نعم ، أما سمعت قول عبيد بن الأبـــرص :

فجاءوا يُهْرَعونَ إليه حَتَّى يكونوا حَوْلَ مِنْبَرَهُ عِزِينَا

أي : حِلَقاً " [14]

« قال أخبرني عن قوله - تعالى - : [**وابْتَغُوا إلَيْهِ الوَسِيلَةَ**][15] ، قال : الوسيلة ، الحاجة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عنترة وهو يقول :

إنَّ الرجالَ لهم إليكِ وسيلةٌ إنْ يأخذوكِ تكحَّلي وتخَضَّبي [16]

« قال : أخبرني عن قوله [**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي كَبَدٍ**] [17] ، قال : في اعتدال واستقامة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول :

يا عَينُ هلاَّ بكيتِ أَرْبدَ إذْ قُمنا وقَامَ الخصوم في كبِد » [18]

قال أخبرني عن قوله - تعالى - : [**وفُومِهَا**] [19] قال : الحنطة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ؛ أما سمعت قول أبي محجن الثقفيّ :

قد كنتُ أحْسِبني كأغنى واحدٍ قدِم المدينة عن زراعــة فوم » [20]

« قال : أخبرني عن قوله – تعالى-: (**أَن تُبْسَـــلَ**][21] قال : تُحْبس ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول زهير :

فَافِتْكَ بِرَهْنٍ لاَ فَكاكَ لَهُ يَوْمَ الوداعِ فَقَلبي مُبْسِلٌ علِقا » [22]

« قال : أخبرني عن قوله- تعالى- : [**هَيْتَ لَكَ**][23]، قال : تهيَّأت لكَ ، قال : أما سمعت قول أُحَيْحَة الأنصاري

بهِ أَحْمِي المضاف إذا دعاني إذا ما قيل للأبطال هَيْتا » [24]

قال ابن عباس : « كنت لا أدري ما (فاطر السموات) ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر احتفراها ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، يريد ، ابتدأتها » [25] .

وقد اهتم العلماء بدراسة الغريب وشرحه ، وتفسير معناه في القرآن الكريم ، كما أولوا به اهتماماً في كتب اللغة التي حوت السؤالات بين العلماء في النحو والصرف والنوادر والأحاجي ، وعلى من رغب فهم الغريب في اللغة أن يدرس معنى هذا الغريب في كتب اللغة ، والمعجمات الثرية بكنوز معانيها .

بعد هذه التوطئة لظاهرة الغريب في اللغة ، ودور العلماء في كشف معاني هذه المفردات ، وخاصة الواردة في القرآن الكريم وإجلاء الدور الذي قام به العلماء في تفسير هذه المفردات وتلك الألفاظ ، فإنَّ مدار البحث يقوم على دراسة ظاهرة الغريب في مقامات الحريري ، الذي يُعد ظاهرة واضحة في مقاماته ، ولمعرفة هذا الغريب عند الحريري في مقاماته يجب الوقوف على كتب اللغة لفهم معنى هذا الغريب ، وخاصة أنَّ التّطور الذي يطرأ على السباقات اللغوية من أحاج ونكت هو ما يدعو الدارس إلى شـــرح هذه الظاهرة اعتماداً على كتب اللغة المختلفة .

ومن يُطالع مقامات الحريري يجد جلياً ظاهرة الإغـــراب في ألفاظه ، وهذا مبرز منهجه التعليمي الذي ارتسمه في تأليفه للمقامات ، حيث أسس هذا المنهج على سعة المعرفة التي ارتضاها لمن يقرأ مقاماته ويدرسها .

تعريف الغـــريب : الغريب لغةً : هو الغامض من الألفاظ ، قال الخليل بن أحمد : « الغريب الغامض من الكلام »[26] ، وعلى هذا فإنَّ الغريب : هو الكلام الذي يحتاج إلى تفسير وتدبر لفهم معناه لغموضه[27].

غريب اللغة في المقامات الحريرية :

جـــــرى الحريري مجرى عصره ، وسار سير أدبائه في نسج مؤلفاتهم ، التي اختصوا جزءاً منها بالألغاز والأحاجي هادفين بذلك إلى امتحان ذكاء المخاطبين، وتحفيز بداهتهم ، كل ذلك عن طريق صياغة نكت فقهية ونحوية ، ولهذا اختص الحريري مجموعة من المقامات بالألغاز ، منها : المقامة الملطية والمقامة النجرانية والمقامة الشتوية ، كما أورد ألغازاً فقهية في مقامتين ، الأولى – المقامة الفرضية ، والأخرى - المقامة الطيبيَّة ، ولدراسة ظاهرة الغريب عند الحريري من خلال مقاماته يجب دراسة مجموعة من هذه الألغاز .

ترجمة الحـــــريريّ : هو القاسم بن عليّ بن محمد بن عثمان بن الحريريّ ، أبو محمد البصريّ من (المَشان) وهي بلدة قريبة من البصرة ، عاش بالبصرة في بني حرام ، ولقب بالحريريّ نسبةً للحرير الذي كان يبيعه ، أو يعمل به [28].

وأُلمشان بلدة تقع قريبة من البصرة تمرها كير ورطبها وفير ، وقد ولد الحريري عام أربعمائة وستة وأربعين في خلافة المسترشد [29]، ونشأ بالبصرة وسكنها في بلدة حرام [30]، ويذكر أنه أخذ النحو عن أبي القاسم الفضل بن محمد القصبائي ، والأدب على يد علي بن فضال المجاشعي ، والفقه على ابن الصبائح ، وأبي إسحاق الشيرازي ، وقرأ الحساب والفرائض على أبي الخيريّ [31].

هذا موجز لترجمته مما يسمح المقام به، ومن أراد الاستزادة طالعه في مظانه

ونعود إلى ما أسلفنا الحديث فيه إلى غريب اللغة في مقامات الحريري ، ودراسة مجموع من النّصوص التي وّظفها الحريريّ لامتحان الأذهان ، واختبار الألمعية عن طريق الأحاجي والألغاز ، سبراً لغريب اللغة ، فإذا طالعنا المقامة السادسة والثلاثين نجده ينادي أصحاب العقول لامتحان ذكائهم عن طريق الألغاز ، وأحاجي الغريب مما يعرضه خلال هذه المقامة وقد ســـيَّج هذه الأحاجي بأن تكون أجوبتها ذات مماثلة حقيقية بألفاظ معنوية ، ذات نكته أدبية " اعلموا يا ذوي الشمائل الأدبية ، والشموع الذهبية ، أنَّ وضع الأحجية لامتحان الألمعية ، واستخراج الخبيَّة الخفيَّة ، وشرطيها أنْ تكون ذات مماثلة حقيقية ، وألفاظ معنوية ، ولطيفة أدبية ، فمتى نافت هذا النَّمط ، ضاهت السَّقط ... » [32].

ومن أمثلة مسائل هذا النوع ما طرحه الحريري من أسئلة على أصحاب الألمعية والعقول الراجحة قائلاً :

يا مَنْ سما بذكاءِ في الفضل وارى الزنادِ

ماذا يماثل قوله : **جوعٌ أُمِدَّ بِزادِ.**

ثم ضمك إلى الثاني وأنشد :

ياذا الذي فاق فضلاً ولم يدنْسْهُ شَيْنٌ

ما مِثل قول ألمحُاجي : ظهر أصابته عَيْنٌ.

ثمَ لحظ الثالث وأنشد يقول :

يا مَنْ نتائج فكرهِ مثل النقود الجائزة

ما مثلُ قولك للذي حاجيتَ صادف جائزة

وأتلع إلى الرابع وقال :

أيا مستنبطَ الغامِضَ مِنْ لُغزِ وإضمارٍ

ألا اكشف لي ما مثل تناول ألفَ دينار

ورمى إلى الخامسَ ببصره وقال :

يأيُّهذا الألمعيَّ أخو الذَّكاء ٱلمنْجلىّ

ما مثل أَهْمَلَ حِليَةً بَيِّنْ هُدِيتَ وعَجِّلِ » (33)

هذه الأحاجي التي ساقها الحريريّ تعدُّ رياضة ذهنية تعتمد امتحان القدرة على توظيف الثروة اللغوية في استنباط النكت واللطائف فيما يحقق المتعة والجمال بما توفره اللغة من إمكانات .

هذه المسائل التي قدمّها الحريري المذكورة فيما سبق تفسيرها على النحو التالي :

قوله : « جوعٌ أُمِدَّ بِزادِ » بما ثله قولك (بطوامير) فعند تقسيم لفظ (طوامير) فإن (جزع) يقابله (طوا) فهو مثله في المعنى ، واللفظة الثانية (مَيْر) يقابله (أمدَّ بزاد) ؛ لأن الميْر ، هو الإمداد بالزاد ، وهذا يوافقه معنىً .

أمَّا قوله (ظهر أصابته عَيْنٌ) ؛ فيقابله قولك : (مطاعين) حيث إنَّ (المطا) هو الظهر ، وعِينَ الرجل أصابته العين .

وقوله (صادفَ جائزة) يماثله قولك (ألفى صلة) ؛ وألفى تعني صادفَ ، والجائزة يمثلها (الصلة) تصل بها من قصدك ، وهذه مماثلة بين اللفظين في المعنى (34)، هذا إذا قمنا بتقسيم الألفاظ وتفسيرها بعد ذلك مقسمة فنجدها تأتي بمعنى : يماثل هذا اللفظ بعد تقسيمه ، أما إذا تركت هذه الألفاظ دون تقسيم ، فإنها تؤدّي معنىً آخر غير ذلك عند تقسيمها ، فإنَّ معنى (الطوامير) هو الكتب ، مفردها (الطومار) والمطاعين جمع مفردة (مطعان) كثير الطعن ، وقولك (الفاصلة) معناها التي تقع بين الشيئين ، فتفصل هذا من هذا ، ومن معنى الفاصلة ، تلك التي من مصطلحات العروض .

هذه المقامة ألفَّها الحريري بهدف الألغاز والمطارحة واختبار ذكاء العقول وأصحاب الشمائل كما ذكر سالفاً ، واستنباط المعاني الخفية واستجلائها .

ومن دراسة منهج الحريري في هذا الصدد نجده لم يقف عند الألغاز والأحاجي اللفظية في اللغة ، بل نجد جلياً اهتمامه بالجوانب النحوية والفقهية في مذهبه هذا فجعل المقامة الرابعة والعشرين ، وهي المقامة (النحوية) التي تسمّى (المقامة القطعية) نسبة إلى (قطيعة وهي اسم بلد ، هذه المقامة جعلها الحريري للنحو وألغازه ، حيث تناول في هذه المقامة ما يصل إلى اثنتي عشرة مسألة ، يذكرها على سبيل الألغاز والامتحان ، قال : « أَمَّا إذ دَعَوْتُم نَزَال وتلببتم للنضالِ ، فما كلمةٌ هي إنْ شئتم حرفٌ محبوبٌ ، أو اسمٌ لما فيه حَلُوب ؟ وأيّ اسم يتردد بين فرد حازم ، وجمع ملازم ؟ وأية هاء إذا التحقت أماطت

الثقل ، وأطلقت أُلمعْتَقَل ؟ وأين تدخل السِّين فتعزل العاملَ من غير أن تحامل ؟ وما منصوبٌ أبداً على الظرف لا يخفضه سوى حرفٍ ؟ وأيَّ مضاف أخل من عُـــرَى الإضافة بعروة ، واختلف حكمه بين مساء وغدوةٍ ؟ وما العامل الذي يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عملهِ ؟ وأيَّ عامل نائبه أرحب منه وكْراً ، أعظم مَكْراً وأكثر لله تعالى ذكراً ؟ وفي أيَّ موطن تَلْبَسُ الذكران براقع النسوان ، وتبرز ربّاتُ الحِجال بعمائم الرجال ؟ وأين يجب حفظ المراتب ، على المضروب والضارب ؟ وما اسمٌ لا يعرف إلاَّ باستضافةِ كلمتين ، والاقتصار منه على حرفين ، وفي وصفه الأول التزام ، في الثاني إلزام ؟ وما ووصف إذا أردفَ بالنون نقص صاحبه في العيون وقُوِّمَ بالدُّون ، وخرج من الزَّبون ، وتعرَّضَ للهون ؟ » [35]، هذه اثنتا عشرة مسألة من مسائل الألغاز التي أوردها الحريري في المقامة الرابعة والعشرين ، المقامة النحوية ، وقد تسمى المقامة القطعية ، التي انتهج فيها منهجاً تعليمياً تدريبياً ، يقوم على تحليل القواعد النحوية عن طريق الإحجاء ، وتقديم المعلومة عن طريق إشكال يفسَّـــر بواسطة تقنيات اللغة وإمكانات المعنى الذي يُعدّ أساس التواصل بين المرسل والمستقبل .

ويعد هذا العرض للمسائل النحوية التي أوردها الحريري في هذه المقامة – المقامة النحوية – أقدم تفسيراً لهذه اللطائف والأحاجي النحوية حسب ورودها في نص الحريري المذكور سابقاً .

- الكلمة التي هي حرف محبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب هي (نَعِـــمَ) التي تكون حرفاً لتصديق الإخبار ، وتكون اسماً إذا قُصِد بها الإبل والغنم [36].
- الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، هو (سراويل) يرى بعضهم أنه مفرد جمعه (سراويلات) وهو حازم ؛ لأنه يضم الخصر ، ويرى آخرون بأنه جمع مفرده (سروال) وعلى هذا فإن (سراويل) جمع ، وهو لا ينصرف ، وهذا معنى قوله (ملازم) [37]، وقد فصّل النحاة هذه المسألة تفصيلاً بيّناً في مظانها [38].
- الهاء التي إذا التحقت أماطت الثقل ، وأطلقت المعتقل ، فهي التي تلحق الجمع ، مثُل : صيارفة وصيافلة ، وهذا يؤدّي إلى صرف هذا الجمع إذا التحقت الهاء به ، لعل صرورته إلى شبه المفرد ، مثل رفاهية ، وكراهية ، فأدّى ذلك إلى خفته ، فصرف لذلك ، وقد كنَّى في هذه الأحجية عمّا لا ينصرف بقوله (المعتقل) [39].
- والموطن الذي يلبس فيه الذكران براقع النسوان ، وتبُرزُ فيه رَّبات الحجال بعمائم الرجال ، فالمقصود أول العدد المضاف ، من الثلاثـــة إلى العشرة ، فإنّ العدد يخالف المعدود تذكيراً وتأنيثاً ، فيأتي العدد مؤنثاً بالهاء مع المعدود المذكر ، ويأتي

محذوف الهاء مع المعدود المؤنث ، وشاهد ذلك قوله تعالى [**سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ**] [40]، « والهاء في غير هذا الموطن من خصائص المؤنث ... فقد رأيت كيف انعكس في هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث ، حتى انقلب كل منهما ضد قالبه ، وبرز في بزة صاحبه » [41].

قدمت فيما مضى أمثلة من الألغاز النحوية الواردة في مقامات الحريري ، وهي أمثلة موجـــزة بما يسنح به المقام ، وسعة هذا البحث الذي لا يناسبه التوسع والاستطراد ، هذا الباب الذي سلكه الحريري يدل دلالة واضحة على أنَّ الحريري يمتلك ثروة لغوية كبيرة ، وهي انعكاس واضح لثقافته التي تعبّر عن عصره ، وبيئته ، فهو من عصر تراكمت فيه المعرفة ، وازدهرت الثقافة ، وتناقحت العلوم ، فانطلق الحريري شرهاً يعبّ من فيضِ معينٍ لا ينضب.

هذا فيما أورده الحريريّ من ألغاز ونكت في النحو من مسائل ، أما المسائل الفقهية فقد خصّها الحريريّ بمقامتين ، الأولى – القامة الفرضية ، وهي المقامة الخامسة عشرة [42]، والثانية – المقامة الطيبية وهي المقامة الثانية والثلاثون [43].

فقد ضمَّن هذه المقامات مسائل كثيرة في الفقه ، تصل إلى مائة مسألة يظهر الإغراب فيها جلياً ، لا يمكن فهم معناها ، والإحاطة بمغزاها إلا بفهم اللغة فهماً دقيقاً وأنت تجد الحريريّ في هذا الشأن يفسّـــــر غوامض المسائل الفقهية ، ويجيب المسائل بالشـــرح والتمحيص معتمداً اللغة أساسا لتفسير الألفاظ ، وللوقوف على هذه الأحاجي والألغاز الفقهية وما جاء فيها من غريب اللفة ، وما قدمَّه الحريري من شرح وتفسير لها .

يقول الحريري : « فو الذي فطـــــــر السماءَ وعلّم آدم الأسماء ، إنيّ لفقيه العربِ العَرباء ، وأعلَمُ مَن تحت الجَرْباء ، فصَمَدَ له فتى فتيقُ اللسانِ ، جريّ الجَنان، وقال : إنيّ حاضرتُ فُقهاء الدنيا حتى انتخلتُ منهم مائة فُنيَا ، فإن كنتَ ممن يرغَبُ عن بناتِ غيرٍ ، ويرغب مِنّا في مَيْر ، فاستمع وأجِبْ ؛ لتقابل ما يجب ، فقال : الله أكبر ، سيَبِينُ المُخَبر ، وينكشفُ المضمرُ واصدع بما تؤمر » [44].

قال : « ما تقول فيمن توضأ ثم لَمَسَ ظهرَ نَعْلِهِ ؟ قال : انتَقَضَ وضوءُه بفعله، (النعلُ : الزوجة)[45] » ، وهو هنا يشرح هذه الأحجية ، ويفسرها اعتماداً على اللغة ففسر (النعل) بمعنى الزوجة ، حيث « يقال لزوجة الرجل ، هي نعله ، ونعلته ... والعرب تكني عن المرأة بالنعل» [46].

قال : « فإن توضأ ثم أَتْكَأَهُ البَرْدُ ؟ قال : يجددُ الوضوءَ مِنْ بعدُ ، الَبْردُ : النومُ » [47].

فقد ورد (البَرْد) في كتب اللغة والمعاجم بمعنى (النوم) . إذ جاء في تفسير قوله تعالى : [**لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً ولا شَرَاباً**] عن ابن عباس أنهم لا يذوقون فيها بردَ الشراب ولا الشراب ، وقيل لا يذوقون فيها برداً ، أي : النوم [48].

قال : « أيمسح المتوضئُ أُنْثَيَيْهِ؟ قال : نُدبَ إليهِ ولم يوجب عليه » [49]، فالأنثيان هما الأذنان في المعاجم وكتب اللغة [50].

قال : « أيجوز الوضوء ممّا يقذفهُ الثعبان ؟ قال : وهل أنظفُ منه للعربان [51]، الثُعبان جمع ثَعْبٍ ، وهو سيل الوادي » [52].

قال : « أيجوز أن يسجد الرجل في العَذْرة ؟ قال : نعم ، وليجانب القُذْرةَ . العَذرة : فناء الدار » [53].

قال : « فهل له السجود على الخلاف ؟ قال : لا ، ولا على أحد الأطراف ، الخلاف : الكُم » [54].

قال : « أيجوز السجود على الكُراع ؟ قال : نعم ، دون الذراع (الكراع) : ما استطال من الحُرّة ، وهي أرض ذات حجارة سود » [55].

قال : « أيجوز للدارس حمل المصَاحف ؟ قال : لا ، ولا حملها في الملاحف ، الدارس : الحائض » ([56]) ، « ودرست المرأة تَدْرُسُ دَرْساً ودُرُوساً ، وهي دارسٌ ... حاضت » [57].

قال : « ما تقول فيمن صلى وعانته بارزة ؟ قال : صلاته جائزة . العانة : الجماعة من حُمُر الوحش » [58].

قال : « فإن صلى وعليه صوم ؟ قال : يعيد ولو صلى مائة يوم ؟ الصوم : ذرق النعام » [59] . وأوضحت كتب اللغة والمعاجم أن قولنا « صام النعام إذا رمى ذرقه ، وهو صِومه ، ... صام النعام صوماً ، ألقى ما في بطنه » [60].

قال : « فإن ضَحِكَت المرأةُ في صومها ؟ قال : بَطَلَ صوم يومها . ضَحِكَت هاهنا ، أي : حاضت ، ومنه قوله- تعالى - : [**ضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ**] [61].

قال : « أيجوز للحاج أنْ يعتمر ؟ قال : لا ، ولا أنْ يختمر . الاعتمار : لُبْس العِمَارة ، وهي العِمَامَة ، ولاختمار لبس الخمّار » [62].

قال : « أيجب على الحاج استصحاب القارب ؟ قال : نعم ، ليسوقهم إلى المشارب والقارب : طالب الماء بالليل » [63].

قال : « ما تقول في بيع الكمُيت ؟ قال : حرام كبيع الميْت ، الكميت : الخمر » [64].
وهذا المعنى يوافق المعاجم وكتب اللغة ، حيث إنّ « الكُميت : من أسماء الخمر فيها حمرةٌ وسواد » [65].

قال : « ما تقوم في ميتة الكافر ، قال : حِلٌ للمقيم والمسافر ، الكافر : البحر / وميتتهُ السمك الطّافيء فوق مائه » [66].

قال : « أيحلُّ التَّكسُّب بالطَّرْقِ ؟ قال : هو كالقمار بلا فرق . الطَّرق الضربُ بالحصى ، وهو من أفعال الكهنة » [67].

قال : « أيسلّم القائم على القاعد ؟ قال : محظور فيما بين الأباعد . القاعد : التي قدت عن الحيض أو عن الأزواج » [68].

بالنظر إلى ما تقدم من عرض نجد الحريريّ يقدم سؤالاته ثم يجيب عليها حتى يفرغ من مسائله ليقول له السائل : « لله درك من بحر لا يغضغضه الماتح ، وحَبْرٌ لا يبلغ مدحه المادح ، ثم أطرق إطراق الحييَّ ، وأرحمَّ إرمام العَييّ فقال له أبو زيد : إيهِ يا فتى ، فإلى متى وإلى متى ! فقال إيهِ لم يبقَ في كنانتي مِرْماة ، ولا بعد إشراقِ صُبحك مماراة ، فبالله أيّ ابن أرض أنت ؟ فما أحسنَ ما أبنتَ ! ... ثم قال : اللهمّ كما جعلتنا ممن هُدِيَ ويَهدِي ، فاجعلهم ممن يهتدي ويُهدَي » [69].

وبالنظر إلى هذه الأسئلة التي يسوقها الحريريّ فإنه لا يهدف إلى شرح المسألة الفقهية ويوضح أحكامها ، بل يهدف إلى إثراء المعجم اللغوي عند الدارسين ، حيث يأتي بألفاظ لها معنى عند عموم الناس ، وفي الوقت نفسه لها معنى آخر غير معناها المعروف ، فيأتي الحريريّ بهذه الألفاظ على سبيل الألغاز والنكت ، وهذا مذهب تعليمي مفيد يؤتي ثماره دون أدنى شك ، وهذا الاتجاه الذي سلكه الحريري من اعتماد الحريري للإغراب والألغاز في مقاماته فإنَّ ذلك يجعل هذه المقامات تمثل معجماً لغوياً بما تحتويه من كثير التفسيرات اللغوية للألفاظ التي تناولتها من مسائل نحوية وأبنية صرفية واشتقاق ومعاني ، وهذا يدلّ على سعة اطلاع الحريري وعظيم ثروته اللغوية التي أعدها أساسا ومنطلقاً لمقاماته ، ومما يؤكد أهمية مقامات الحريري أنها كانت أكثر الكتب التي وقع لها شرح ، وما وضع لها من تعاليق حيث أُحصي لها أكثر من خمسة وثلاثين شارحاً ، منهم محمد بن عليّ بن عبد الله الحلّي ، ومحمد بن علي المعروف بابن حميدة ، ومحمد بن محمد المكي الصقلي المعروف بابن ظفر ، وغيرهم [70].

وتدلنا كثرة عدد الشارحين للمقامات إلى قيمة ما شحنت به المقامات من الألفاظ العربية ، والأمثال والأحاجي والألغاز والنكت النحوية والبلاغية ، الأمر الذي يحيط

الشرح بسعة مجال الاستطراد [71]، وقد أكد الحريري ذلك قائلاً « وأنشأت ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ورؤية ناضُبة ، وهموم ناصبةٍ ، خمسين مَقامَة تحتوي على جدْ القول وهزله ، ودقيق اللفظ وجَزْله وغرَر البيان ودُرَرِهِ ، ومُلح الأدب ونوادره ، إلى ما وشحْتُها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ، ورصّعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجي النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المُحَّبرة ، والمواعظ المُبكية ، والأضاحيك الملهية ، ممّا أمليت جميعه على لسان أبي زيد السّـــروجيّ ، وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصريّ » [72].

النتائـــــــــج

في ختام هذه الدّراسة توصّل الباحث إلى جملة من النتائج كانت خلاصة استقراء ظاهرة الإغراب والألغاز في مقامات الحريري التي تعبر عن مناهج التأليف في عصر الحريري ، وهذا على البيان التالي :

1- بـــرز الإغراب والألغاز والأحاجي النحوية في عصر الحريري مقياساً لذكاء المخاطبين وامتحان بديهتهم ، الأمر الذي حفَّز الحريري بأن يشحن مقاماته بثلاث مقامات في هذا الشأن ، المقامة الملطية ، المقامة النجرانية ، المقامة الشتوية .

2- انتحى الحريري منهجاً تعليمياً في تأليف كتابه (المقامات) حيث يقوم بطرح سؤال فيه ألغاز أو إغراب قاصداً شرح لفظ من الألفاظ ، ثم يجيب الحريري عن هذا السؤال ، وبهذا تكون الفائدة عظيمة للسامع بحصول المعرفة وفهم المراد .

3- اهتمام العلماء بالمقامات ، وشرحها وفهمها ، وكثرة شراحها سببه عظم أهمية ما شحنت به من نفائس ودُرر وما حوته من إغراب ، ومسائل نحوية وفقهية ولغوية ومعجمية .

4- تعدّ المقامات الحريرية فيما تناولته من دروس لغوية من أهم المعاجم التي اهتمت بالألفاظ وغريبها ، وما قدمته من تفسير وشرح لمجموعة من الألفاظ الغريبة .

5- المقامات تقدم نوعاً من أنواع الدرس اللغوي يمكن التأسيس عليه والإفادة منه في الدرس اللغوي .

6- المقامات الحريرية تبرز الثروة اللغوية التي يمتلكها الحريري ، وما عنده من أسلوب أدبي رصين .

7- تُظهر المقامات الحريرية منهج التأليف في عصر الحريري وأصوله وأسسه معبراً عن ثقافة ذلك العصر . والله أسأل التوفيق

الهوامـــــش

([1]) تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة : 39 .
([2]) نفسه : 39-40 .
([3]) هذا القول لأبيّ بن كعب ، أخرجه البخاري ، باب نزول القرآن على سبعة أحرف 9: 20 ، واحمد في المسند ، رقم الحديث : 21172، وينظر : جامع الأصول 2: 481 ، النشر في القراءات العشر 1: 22 .
([4]) ينظر : النشر في القراءات العشر 1: 22 .
([5]) نفسه 1: 22-23 .
([6]) الإتقان في علو القرآن 1: 149 ، وينظر الجامع الصغير 1: 149 .
([7]) عبس : 32 .
([8]) الإتقان في علو القرآن 1: 149 ، وينظر مجاز القرآن 2: 286 .
([9]) النحل : 46 .
([10]) البيت في لسان العرب ، وتاج العروس (خوف)
([11]) الكامل في اللغة والأدب للمبرد 1: 178 .
([12]) ينظر : لسان العرب ، تاج العروس)عجم) و (عجم).
([13]) المعارج : 37 .
([14]) ينظر : معنى (عزين) لسان العرب (عزا) ، وينظر : الإتقان في علوم القرآن 1: 390-391 .
([15]) المائدة : 35
([16]) ديوان عنترة : 13 .
([17]) البلد : 4
([18]) الإتقان في علوم القرآن 1 : 392 .
([19]) البقرة : 61
([20]) الإتقان في علو القرآن 1: 395 ، وينظر لسان العرب (فَوَمَ)
([21]) الأنعام : 70
([22]) الإتقان في علو القرآن 1: 403 ، وينظر ديوان زهير : 63 .
([23]) يوسف : 23 .
([24]) الإتقان في علو القرآن 1: 405 .
([25]) الإتقان في علو القرآن 1: 357 .
([26]) معجم العين (غرب) ، وينظر : لسان العرب وتاج العروس (غرب)
([27]) ينظر جمهرة اللغة 1: 321 ، لسان العرب ، القاموس المحيط (غرب)
([28]) ينظر : وفيات الأعيان 4: 67 .
([29]) ينظر : معجم البلدان 5: 131 ، معجم ما استعجم 4: 1231 .
([30]) ينظر :وفيات الأعيان 4: 67 ، شذرات الذهب 6: 85 .
([31]) ينظر : نزهة الألباء : 379 ، إشارة التعبين : 263 ، بغية الوعاة 2: 257 ، وينظر : سيبر أعلام النبلاء 19:461 ، طبقات الشافعية الكبرى 7:266 وما بعدها .
([32]) شرح مقامات الحريري للشريشي ، 4:208 ، بنظر : المزهر 2: 622 .
([33]) شرح المقامات للشريشي 3: 213-214 .
([34]) نظر : المصدر نفسه 4: 217 .

(35) شرح المقامات للشريشي 3: 213-214 .
(36) ينظر : شرح المقامات للشريشي : 229 ، لسان العرب (نَعِمَ) ، همع الهوامع 2: 606 ، 607 .
(37) ينظر : شرح المقامات للشريشي 3: 229 .
(38) ينظر تفصيل هذه المسألة في الكتاب 3: 229 ، شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ، أوضح المسالك لابن هشام 4: 104 – 105 ، شرح ابن الناظم ، 457-458 ، همع الهوامع 2: 219 ، 1: 96.
(39) ينظر : الكتاب 3: 220 ، شرح المقامات للشريشي ، 3: 230 .
(40) الحاقة : 7
(41) شرح المقامات للشريشي ، 3: 231 ، وينظر تفصيل هذه المسألة كتب النحو المختلفة للإفادة .
(42) شرح المقامات للشريشي : 150 .
(43) شرح المقامات للشريشي 4: 36
(44) شرح المقامات للشريشي 4: 39
(45) نفسه 4: 45 / المزهر 1: 624 .
(46) لسان العرب (نضعَلَ) ، وينظر :: نتج العروس (نَعَلَ)
(47) شرح المقامات للشريشي 4: 45 ، ينظر : المزهر 1: 624 .
(48) ينظر : لسان العرب (بَرَدَ) ، تاج العروس (بَرَدَ)
(49) شرح المقامات للشريشي 4: 45 ، المزهر 1: 624 ,
(50) ينظر : لسان العرب (أنث) وتاج العروس (أنث، المزهر 1: 624 .
(51) شرح المقامات للشريشي 4: 46 .
(52) ينظر : لسان العرب (ثَعَبَ) وتاج العروس (ثَعَبَ) المقامات الأدبية : 51 .
(53) شرح المقامات للشريشي 4: 47 ، المقامات الأدبية : 452 ، وينظر معنى (العُذرة لسان العرب (عَذَر) وتاج العروس (عَذَر)
(54) شرح المقامات للشريشي 4: 47 ، بنظر معنى (الخلاف) لسان العرب (خَلَفَ)
(55) شرح المقامات للشريشي 4:47 ، ينظر معنى (كُراع) لسان العرب (كرع) ، تاج العروس (كَرَعَ).
(56) شرح المقامات للشريشي4: 47 ، المقامات الأدبية : 253 .
(57) لسان العرب (دَرَسَ) وينظر : تاج العروس (صَوَمَ)
(58) شرح المقامات للشريشي 4: 48 .
(59) نفسه 4:48 .
(60) لسان العرب (صَوَمَ) تاج العروس (صَوَمَ)
(61) شرح المقامات للشريشي 4: 50
(62) نفسه 4: 51 .
(63) نفسه 4: 52.
(64) نفسه 4 : 52 .
(65) لسان العرب (كُمتُ) وينظر : تاج العروس (كَمتَ)
(66) شرح المقامات للشريشي 4: 54 ، ينظر المعنى : لسان العرب (كفر)
(67) شرح المقامات للشريشي 4: 55 .
(68) شرح المقامات للشريشي 4: 55 ، ينظر المعنى : لسان العرب (قَعَدَ) تاج العروس (قَعَدَ)
(69) شرح المقامات للشريشي 4: 70-71 ، المقامات الأدبية 264 وما بعدها .
(70) ينظر : كشف الظنون 2: 1788 .
(71) ينظر : شرح المقامات للشريشي1 : 15
(72) شرح المقامات للشريشي 1: 29 .